لله درهم من ربانيين

obeikandl.com

للّه درهم من ربانيين

*** للّه درك يا يزيد بن مرثد: كم بينك وبين من يهرولون إلى المناصب ولو على حساب دينهم:**

عن الوضين بن عطاء قال: أراد الوليد بن عبدالملك أن يُوليّ يزيد بن مرثد، فبلغ ذلك يزيد بن مرثد فلبس فروه قدْ قلبه، فجعل الجلد على ظهره والصوف خارجًا، وأخذ بيده رغيفًا وعرقًا وخرج بلا رداء ولا قلنسوة ولا نعل ولا خف، وجعل يمشي في الأسواق ويأكل الخبز واللحم، فقيل للوليد: إن يزيد بن مرثد قد اختلط، وأخبر بما فعله فتركه».

إن للّه عبادًا فُطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

كراهية توليّ القضاء حذرًا من القرب من الولاة وإشفاقًا على النفس:

من العلماء الربانيين مَن كره تولى القضاء حذرًا من القرب من الولاة والسلاطين وإشفاقًا على أنفسهم من عدم الإتيان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يجب، وإقامة العدل على الوجه الأتمّ بين الرعية والأمراء على حدّ سواء، ففرّوا بدينهم.

❑ منهم: شيخ الإسلام أبي قلابة الجَرمي عبداللّه بن زيد.

قال عنه أيوب السختياني: كان واللّه من الفقهاء ذوي الألباب. إني وجدت أعلم الناس بالقضاء أشدهم فرارًا منه، وأشدهم منه فرقًا، وما أدركت بهذا المصر أعلم بالقضاء من أبي قلابة.

وعن أيوب قال: لما مات عبدالرحمن بن أُذْينة ـ يعني قاضي البصرة ـ زمن شُريح ذُكِر أبو قلابة للقضاء، فهرب حتى أتى اليمامة، قال: فلقيته بعد

ذلك فقلتُ له في ذلك، فقال: ما وجدت مثل القاضي العالم إلاّ مثل رجل وقع في بحر، فما عسى أن يسبح حتى يغرق[١].

❑ وعن مفضل قال: حبس ابن هبيرة منصوراً ـ يعني ابن المعتمر ـ شهراً على القضاء يريده عليه، فأبى، وقيل: إنه أحضر قيداً ليقيده به، ثم خلاّه[٢].

❑ وقال يحيى بن معين: كان أبو حنيفة ثقة... ولقد ضربه ابن هُبيرة على القضاء، فأبى أن يكون قاضيًا.

❑ وعن مغيث بن بديل قال: دعا المنصور أبا حنيفة إلى القضاء فامتنع، فقال: أترغب عما نحن فيه؟ فقال: لا أصلح. قال: كذبت. قال: فقد حكم أمير المومنين عليّ أني لا أصلح، فإن كنتُ كاذبًا، فلا أصلح، وإن كنتُ صادقًا فقد أخبرتكم أني لا أصلح، فحبسه[٣]. وضربه أيامًا، كل يوم عشرة أسواط فتركه.

❑ ودعا المنصور شريكًا فقال: إني أريد أن أوليك القضاء، فقال: أعفني يا أمير المؤمنين قال: لست أعفيك. قال: فأنصرف يومي هذا وأعودُ، فيرى أمير المؤمنين رأيه. قال: تُريد أن تتغيّب؟ ولئن فعلت لأقدمن على خمسين من قومك بما تكره، فولاّه القضاء فبقي إلى أيام المهدي، فأقره المهدي، ثم عزله[٤].

❑ وقال محمد بن عامر المصيصي: سألت أحمد: وكيع أحبّ إليك أو

---

(١) انظر: «السير» (٤/ ٤٦٨ ـ ٤٧٥).

(٢) انظر: ترجمة منصور في «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٤٠٢ ـ ٤١٢).

(٣) انظر: ترجمة أبي حنيفة في «السير» (٦/ ٣٩٠ ـ ٤٠٤).

(٤) انظر: ترجمة شريك في «السير» (٨/ ٢٠٠ ـ ٢١٦).

يحيى بن سعيد؟ فقال: وكيع. قلتُ: كيف فضّلته على يحيى، ويحيى ومكانه من العلم، والحفظ والإتقان ما قد علمت؟ قال: وكيع كان صديقًا لحفص بن غياث، فلما ولي القضاء، هجره، وإنّ يحيى كان صديقًا لمعاذ بن معاذ، فلما ولي القضاء لم يهجره يحيى.

وقال محمد بن علي الوّراق: عُرِض القضاء على وكيع، فامتنع[١].

❑ والإمام العظيم ابن أبي عاصم الذي ولي قضاء أصبهان.

هو من أهل السنة والحديث والنُّسك والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: وصل إليَّ منذ دخلت إلى أصبهان من دراهم القضاء زيادة على أربع مئة ألف درهم، لا يحاسبني اللَّه يوم القيامة أني شربت منها شربة ماء، أو أكلت منها، أو لبست.

وقالت ابنته عاتكة: سمعت أبي يقول: جاء أخي عثمان عهده بالقضاء على سامراء، فقال: أقعد بين يدي اللَّه تعالى قاضيًا؟! فانشقت مرارته، فمات.

❑ وذُكِر عن أبي الشيخ قال: حضرت جنازة أبي بكر، وشهدها مئتا ألف من بين راكب وراجل، ما عدا رجلاً كان يتولى القضاء، فحُرِم شهود جنازته، وكان يرى رأي جهم[٢].

فرّ عن القضاء كثير من الفضلاء وتغيّبوا حتى تركوا، وسجن بسببه عند الامتناع آخرون[٣].

---

(١) انظر: «السير» (٩/ ١٤٠ ـ ١٦٨).

(٢) «السير» (١٣/ ٤٣٠ ـ ٤٣٩).

(٣) «حلية الأولياء» (٥/ ١٦٥).

❑ ولما أراد هشام للقضاء بقرطبة زياد بن عبدالرحمن اللخمي المعروف بشَبَطون وعزم عليه، خرج منها فارًّا بنفسه، على ما حكاه ابن حارث. فقال هشام عند ذلك: «ليت الناس كلهم كزياد، حتى ألغى أهل الرغبة في الدنيا!»[١].

❑ ودعا الأمير محمد بن عبدالرحمن الشيخ إبراهيم بن محمد بن بار للقضاء بالأندلس فأبى وامتنع، فأرسل إليه هاشم بن عبدالعزيز صاحبه مرة ثانية بوصية يقول: «إذا لم تقبل قضاءنا، فاحضر مجلسنا، وكن أحد الداخلين علينا، الذين نشاورهم في أمورنا، ونسمع منهم في رعيتنا. فلما استمع رسالته، قال: «يا أبا خالد، إن ألحّ عليّ الأمير في هذا ومثله، هربتُ واللَّه بنفسي من بلده! فما لي وله؟» فأعرض عنه الأمير عند ذلك، وعلم أنه ليس من صيده[٢].

❑ وقاسم بن ثابت بن عبدالعزيز الفهري السرقسطي صاحب «كتاب الدلائل في شرح غريب الحديث» دُعي للقضاء ببلده؛ فامتنع من ذلك، فلما اضطره الأمير وعزم عليه، استمهله ثلاثة أيام، يستخير فيها اللَّه ـ عز وجل ـ فمات خلال تلك المدة، فكان الناس يرون أنه دعا اللَّه تعالى في الاستكفاء؛ فكفاه وستره، وصار حديثه موعظة في زمانه[٣].

❑ وممن جاهر بالإصرار على الإباية من القضاء محمد بن عبدالسلام الخشني أراده الأمير محمد لتقليد القضاء بجيّان، وأمر الوزراء أن يُجلسوه ويلزموه ذلك؛ ففعلوا وأدوا إليه رسالة الأمير، فأبى عليهم ونفر نفوراً شديداً؛ فلاطفوه وخوّفوه بادرة السلطان؛ فلم يزد إلا إباءً ونفوراً، فكتبوا إلى

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» لأبي الحسن النباهي الأندلسي ص(٢٧ ـ ٢٨) ـ دار الكتب العلمية.

(٢، ٣) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(٢٨، ٢٩).

الأمير محمد بإعياء الحيلة عليهم في إجابته، فوقّع الأمير توقيعًا غليظًا معناه: إنّ من عصانا، فقد أحلّ بنفسه دمه فلما قرأوه على الخشَنيّ، نزع قلنسوته من رأسه ومدّ عنقه وجعل يقول: «أبيْت كما أبت السموات والأرض إباية إشفاق، لا إباية نفاق!» فكتبوا إلى الأمير بلفظه؛ فكتب إليهم أن «سلّموا أمره وأخرجوه عن أنفسكم!»، فقالوا له: انصرف[1].

❑ وعرض أمير المؤمنين الرشيد على المغيرة بن عبدالرحمن المخزومي قضاء المدينة، وجائزته أربعة آلاف دينار، فامتنع، فأبى الرشيد إلاّ أن يلزمه، فقال: «واللّه يا أمير المؤمنين لأن يخنقني الشيطان أحبّ إليّ من أن ألي القضاء!»، فقال الرشيد: ما بعد هذا شيء! وأعفاه، وأجازه بألفي دينار[2].

❑ وممن عُرِض عليه القضاء بإفريقية فامتنع منه، أبو ميسرة أحمد بن نزار، فلما عُرِض عليه قال: «اللّهم! إنك تعلم أني قد انقطعت إليك وأنا ابن ثماني عشرة سنة! فلا تمكِّنهم مني!» فما جاء العصر إلاّ وقد تُوفِّي.

فغُسِّل وكُفِّن وخُرِج به، فوجّه إليه الأمير إسماعيل العبدي كفنًا وطيبًا في الأطباق؛ فوافاه الرسول على النعش؛ فجُعل عليه الكفن من فوق[3].

❑ وذكر يحيى بن إسحاق أن هشامًا لمّا ولي، قيل له: «لا يتعدّل ما تريد إلا بولاية زياد بن عبدالرحمن على القضاء!» فبعث إليه؛ فتمنّع؛ فألحّ عليه هشام، وأحضر الوزراء؛ وكلّموه في ذلك عن الأمير وعرّفوه عزمه. فقال لهم: «أما إذا عزمتم، وأكرهتموني على القضاء، فأُخبركم ما أبدأُ به عليّ المشي إلى مكة. إن وليّتموني، وجاءني أحد متظلمًا منكم إلاّ

(١) المصدر السابق ص(٢٩ ـ ٣٠).
(٢) المصدر السابق ص(٣١ ـ ٣٢).
(٣) المصدر السابق ص(٣٣).

أخرجت من أيديكم ما يدّعيه، ورددته عليه، وكلّفتكم البيّنة لما أعرف من ظلمكم!»، فلما سمعوا ذلك، عرفوا صدقه فعملوا عند الأمير في معافاته. فقيل ليحيى بن يحيى: «أهو وجْهُ القضاء؟» قال: «نعم! فيمن عُرِف بالظلم والقدرة!»[١].

من العلماء الربانيين أبو غالب عبدالرؤوف بن الفرج بن أبي كنانة، كان الأمير عبداللّه بن محمد[٢] به معجبًا، وله مفضِّلاً؛ وكان قد اشتهى رؤيته من غير أن يستدعيه، فتعرّض لذلك يوم الجمعة من طاق الساباط[٣]، فرآه عند رواحه إلى المسجد الجامع، وأعجبه سمْته، وأحبّ اجتذابه إليه، وقال: «لا بدّ أن أضمّه إلى الوزارة أو القضاء» فذاكر بشأنه الوزير ابن أبي عبدة، وكان صديقًا لأبي غالب؛ فقال: «ينبغي للأمير أن لا يهجم على الرجل بالاستدعاء، حتى يعرف ما عنده في ذلك»، فقال له: «فكُن أنت الذي يتعرّف ذلك». قال الكاتب المدعّو بسكن بن إبراهيم: «فأرسلني الوزير إليه؛ فعرضتُ عليه مُراد الأمير؛ فتلقّى ذلك مني بالنطق والتضاحك، حتى أطمعني في نفسه، وجعل يقول: «كيف كان تنبهكم لنا بعد طول الغفلة؟ وما نرى هذا منكم عن صحّة نيّة؛ فأنتم أشحّ بدنياكم من أن تعطوا منها أحدًا شيئًا، وتشركوا فيها صديقًا!» قال سكن: «فلما صرت به إلى الجدّ، تنمّر[٤] لي، وقال آخر قوله: «باللّه الذي لا إله إلا هو! لئن عاودتني أو غيرك، أو بلغتْني فيه عن الأمير عزيمة، لأخرجنّ عن الأندلس، فلا أعودنّ إليها آخر الدهر!» فتُرك عن ذلك[٥].

(١) المصدر السابق ص(٣٣ ـ ٣٤).
(٢) ولي عبداللّه بن محمد الأندلس سنة ٢٧٥هـ، وتوفي سنة ٣٠٠هـ.
(٣) الساباط: سقيفة بين دارين تحتها طريق.
(٤) تنمّر: غضب وساء خلقه.
(٥) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(٣٦).

❑ قال عمر بن عبدالعزيز: «لا يصلح للقضاء إلا القويّ على أمر الناس، المستخفّ بسخطهم وملامتهم في حق اللَّه، العالم بأنه مهما اقترب من سخط الناس وملامتهم في الحق والعدل والقصد، استفاد بذلك ثمنًا ربيحًا من رضوان اللَّه»[١].

للَّه درّهم من ربانيين

للَّه درهم من ربانيين زهدوا في مخالطة الأمراء والسلاطين، رفضوا مقابلتهم، أو أخذ أعطياتهم وأموالهم، وكانوا يعدّون الدخول على السلاطين خذلانًا من اللَّه، فإذا اضطرهم الأمر للدخول عليهم صدعوهم بالحق، ووعظوهم، وقضوا حاجات الناس.

*** عدم الدخول عليهم وحث بعضهم بعضاً على ذلك:**

عن شقيق قال: كان ابن زياد يراني مع مسروق فقال: إذا قدمت فالقني، فأتيت علقمة فقال: إنك لم تصب من دنياهم شيئًا إلا أصابوا من دينك ما هو أفضل منه، ما أحبّ أن لي مع الفيء ألفين وأني أكرم الجند عليه[٢].

❑ وانظر إلى سيد البكائين الحسن البصري:

قال فضيل بن جعفر: خرج الحسن من عند ابن هُبيرة فإذا هو بالقرّاء على الباب فقال: ما يُجلسكم ها هنا؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء، أما واللَّه ما مجالستهم مجالسة الأبرار، تفرّقوا فرّق اللَّه بين أرواحكم وأجسادكم، فقد فرطحتم[٣] نعالكم، وشمّرتم ثيابكم، وجززتم شعوركم،

(١) المصدر السابق ص(١٨).

(٢) انظر: «السير» ترجمة علقمة (٤/ ٥٣ ـ ٦١).

(٣) كل شيء عرّضته فقد فرطحته.

فضحتم القرّاء فضحكم اللَّه، واللَّه لو زهدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيكم أبعد اللَّه من أبعد[١].

للَّه درك من إمام أوحدت به أمة فكان زينة لأُمّة.

❑ وقال عالم الديار المصرية ـ ومفتيها عبدالرحمن بن القاسم صاحب الإمام مالك: ليس في القرب من الولاة ولا في الدنو منهم خير.

❑ وقال الثوري: إذا لم يكن للَّه في العبد حاجة، نبذه إلى السلطان.

❑ وقال عبد اللَّه بن المعتز باللَّه: من شارك السلطان في عزّ الدنيا، شاركه في ذل الآخرة.

وأشقى الناس أقربهم من السلطان، كما أن أقرب الأشياء من النار أسرعها احتراقًا[٢].

❑ وقال الإمام سعيد بن الحداد شيخ المالكية: القرب من السلطان في غير هذا الوقت حتف من الحتوف فكيف اليوم؟[٣].

رحمك اللَّه.. هذا في زمانك فكيف في زماننا وهو زمن تحيض فيه الرجال.. يصدق فيه الكاذب، ويكذب فيه الصادق وينطق فيه الرويبضة وتعلو فسولُ الرجال وصعاليكُهم التحوتُ والوعولَ.

❑ قال سحنون رضي الله عنه: «ما أسمج بالعالم أن يُؤتَى إلى مجلسه، فيُسأل عنه فيُقال عند الأمير»، وقال: «كنت أسمعُ أنه يقال إذا رأيتم العالم يحبُّ الدنيا فاتهموه على دينكم» حتى جرّبت ذلك إذ ما دخلتُ قطّ على السلطان إلا وحاسبتُ نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك[٤] مع ما أواجههم به من

(١) «السير».

(٢) «السير» (١٤/ ٤٢ ـ ٤٤).

(٣) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢٠٥ ـ ٢١٤).

(٤) الضعف.

الغلظة والمخالفة لهواهم!!.

❑ وكان الإمام الزهري من أنسك علماء المحدثين، وكان يتردّد على السلطان ليقدّم له النصيحة الواجبة دون أن يستدعي السلطان إلى مجلسه في حلقة العلم، فكتب له أحد إخوانه يلومه على ذلك ويقول:

«عافانا اللَّه وإياك أبا بكر من الفتن ـ فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو اللَّه لك ويرحمك... أصبحت شيخًا كبيرًا قد أثقلتك نعم اللَّه، لما فهمت من كتابه، وعلمت من سنة نبيه.. وليس كذلك أخذ اللَّه الميثاق على العلماء.. قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ اعلم أن أيسر ما ارتكبت، وأخف ما احتملت أنك آنست وحشة الظالم، وسهّلت سبيل الغيّ بدنوك ممن لم يؤد حقًّا، ولم يترك باطلاً حين أدناك، اتخذوك قطبًا تدور عليه رحى ظلمهم، وجسرًا يعبرون عليه إلى بلائهم، وسُلَّمًا يصعدون فيه إلى ضلالهم، ويُدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء.. فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خرّبوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال اللَّه فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ وإنك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل.. فداو دينك.. فقد دخله سقم، وهيئ زادك فقد حضر سفر بعيد، وما يخفى على اللَّه من شيء في الأرض ولا في السماء.. والسلام»[1].

❑ وانظر إلى شيخ الإسلام أبي محمد الأودي عبداللَّه بن إدريس قال عنه الحسن بن الربيع: قُرئ كتاب الخليفة إلى ابن إدريس وأنا حاضر: من عبداللَّه هارون أمير المؤمنين إلى عبداللَّه بن إدريس، قال: فشهق ابن إدريس

(١) «كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء» ص(٢٤).

شهقة، وسقط بعد الظهر، فقمنا إلى العصر، وهو على حاله، وانتبه قبيل المغرب، وقد صببنا عليه الماء فلا شيء قال: إنا للّه وإنا إليه راجعون، صار يعرفني حتى يكتب إليّ! أي ذنب بلغ بي هذا؟!(١).

رحمك اللّه يا ابن إدريس تهرب من معرفة هارون لك وتعد هذا عقوبة لذنب أذنبته وهو الذي كان يغزو عامًا ويحج عامًا، فكيف لو رأيت قرّاءنا وعلماءنا:

يرمرم من فُتات الكفر قوتًا ... ويلعق من كئوسهم الثمالة
يقبل راحة الطاغوت حينًا ... ويلثم دونها خجل نعاله

*** ومن العلماء والربانيين الزهاد من يطلب الأمراء والكبراء مقابلتهم فلا يَرْضون ذلك:**

❑ فقد مرّ بك خبر سيد التابعين سعيد بن المسيب ورفضه لقاء الخليفة عبدالملك بن مروان.

❑ والإمام الزاهد شيخ خراسان شقيق البلخي قال عنه الحاكم: قدم شقيق نيسابور في ثلاثمائة من الزهاد، فطلب المأمون أن يجتمع به، فامتنع(٢).

❑ وزاهد عصره وناسك مصره، مجاب الدعوة يحيى بن مجاهد أبو بكر الفزاري الأندلسي الإلبيري الزاهد: ذكره عمر بن عفيف، فقال: كان من أهل العلم والزهد والتقشف والعبادة، وجميل المذهب، لم تر عينيّ مثله في الزهد والعبادة، يلبس الصوف، ويمشي حافيًا مرة، وينتعل مرة فحدثني

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» ترجمة عبداللّه بن إدريس (٩/ ٤٢ ـ ٤٨).
(٢) انظر ترجمته في «السير» (٩/ ٣١٣ ـ ٣١٦).

محمد بن أبي عثمان، عن أبيه أن الحكم المستنصر باللَّه أحب أن يجتمع بيحيى بن مجاهد الزاهد، فلم يقدر عليه، ووجّه إليه من يتطلف به ويستعطفه، فقال: ما لي إليه حاجة، وإنما يدخل على السلطان الوزراء، وأهل الهيئة، وأيش يعمل بأصحاب الأطمار الرثّة، فوجّه إليه الحكم جبّة صوف وغفّارة وقميصًا من وسط الثياب ودنانير، فلما نظر إليها قال: مالي ولهذه؟ ردّوها على صاحبها، ولئن لم يتركوني سافرت، فيئس من لقائه وتركه[١].

❑ ومن بلاد الهند بدور سافرة زهاد أبناء الآخرة منهم الشيخ علي بن حسان الدين المتقي البرهان يوري كان ـ رحمه اللَّه ـ مرزوق القبول في بلاد كجرات، وكان واليها بها درشاه الكجراتي معتقدًا بفضله وكماله يريد أن يحضر لدْيه، والمتقي لا يرضى بذلك فشفع له القاضي عبداللَّه السندي، فقال له المتقي: كيف يجوز أن يأتيني بمنكراته ولا آمره بالمعروف ولا أنهاه عن المنكر! فأجاز له بها درشاه أن يأمره بما شاء وينهاه عما شاء فأذن له المتقي، فدخل عليه السلطان وقبّل يده[٢].

❑ والشيخ الصالح شمس الدين الكوئلي، أحد المنقطعين إلى الزهد والعبادة ذكره ابن بطوطة في كتابه وقال: إنه كان كبير القدر، ولما دخل محمد شاه تغلق إلى مدينة كوئل فبعث في طلبه فلم يأته، فذهب السلطان إليه ثم لما قارب منزله انصرف ولم يره[٣].

❑ والشيخ العالم الفقيه الكبير نظام الدين محمد بن أحمد البدايونيّ

---

(١) «السير» (١٦/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦).

(٢) «الإعلام» (٤/ ١٨١).

(٣) «الإعلام» (٢/ ٥٤ ـ ٥٥).

انتهت إليه الرياسة في دعاء الخلق إلى اللَّه تعالى، والانقطاع عن الدنيا مع التضلع من العلوم الظاهرة. لم يرض بلقاء الملوك والسلاطين مع إلحاحهم على ذلك وشدة توقهم إليه قال الكرماني في «سير الأولياء»: إن جلال الدين فيروز الخليجي كان يريد أن يلاقيه وهو يمتنع من ذلك، فأراد أن يدخل عليه بغتة بغير إذن فخرج الشيخ من دهلي، وذهب إلى أجودهن قبل أن يحضر الملك عنده، وكذلك أرسل إليه علاء الدين محمد شاه الخلجيّ كتابًا يشتمل على بعض مهمّات الأمور ودعاه يستشيره في بعض المصالح فأبى وقال: إن كان السلطان لا يحب أن أقيم في ملكه فليُظهر ذلك من غير تورية فإن أرض اللَّه واسعة، فأرسل إليه السلطان ابنه واعتذر من مخاطبته إياه في تلك الأمور واستأذن في حضوره لديه، فأبى الشيخ، ولما أصرّ السلطان على ذلك قال: إن في داري بابيْن يدخل السلطان من باب وأخرج من الباب الآخر.

ومن ذلك ما رُوي أن قطب الدين الخلجي كان معتادًا أن يحضر العلماء والمشايخ في غرّة كل شهر للتهنئة، وكان الشيخ لا يذهب بنفسه بل يذهب خادمه إقبال نيابة عنه، فاغتاظ السلطان منه وقال: إن لم يحضر الشيخ بنفسه في الشهر القابل نفعل به ما نشاء، فاغتمّ الناس وكانوا يتناجوْن بينهم، وكان الشيخ جذلاً رخيّ البال فارغ الخاطر لا يرى عليه أثر الحزن حتى استهلّ الشهر وقُتل السلطان المذكور في تلك الليلة[1].

❑ وانظر إلى ابن رسلان أحمد بن حسين بن حسن أبي العباس الرملي الشافعي نزيل بيت المقدس.

كان مؤثرًا صحبة الخمول والشغف بعدم الظهور تاركًا ما يعرض عليه من الدنيا ووظائفها حتى أن الأمير حسام الدين حسن ناظر القدس والخليل

(١) «الإعلام» (٢/ ١٢٤ ـ ١٣١).

جدّد بالقدس مدرسة وعرض عليه مشيختها وقرر له فيها في كل يوم عشرة دراهم فضة فأبى، بل كان يمتنع من أخذ ما يرسل به هو وغيره إليه من المال ليفرّقه على القرّاء.

لمّا سافر الأشرف إلى آمد هرب ابن رسلان من الرملة إلى القدس في ذهابه وإيابه لئلا يجتمع به هو أو أحد من أتباعه وإن تضمّن ذلك تفويت الاجتماع بمن كان يتمناه. وصار المشار إليه بالزهد في تلك النواحي وقُصِد للزيارة من سائر الآفاق.

أرسل إلى طوغان نائب القدس وكاشف الرملة بكف مظلمة فامتنع وقال: طوّلتم علينا بابن رسلان، إن كان له سرٌّ فليرم هذه النخلة لنخلة قريبة منه فما تمّ ذلك إلا وهبّت ريح عاصفة فألقتها، فما وسعه إلا المبادرة إلى الشيخ في جماعة مستغفرًا معترفًا بالخطأ فسأله عن سبب ذلك فقيل له، فقال: لا قوة إلا باللَّه من اعتقد أنّ رمي هذه النخلة كان بسببي أو لي فيه تعلّق ما فقد كفر، فتوبوا إلى اللَّه وجدّدوا إسلامكم، فإن الشيطان أراد أن يستزلكم ففعلوا ما أمرهم به[1].

❑ وانظر إلى الشيخ ابن غانم المقدسي الشافعي الذي ما كان يتردّد إلى أحد من الأكابر بل الأكابر فمن دونهم يتردّدون إليه بحيث طلبه السلطان مراد بك بن عثمان فامتنع فجاءه خفية ومع ذلك لم يجتمع به[2].

❑ والإمام السيوطي كان الأمراء والأغنياء يأتون إلى زيارته ويعرضون عليه الأموال النفيسة فيردها، وأهدى إليه الغوريّ خصيًّا وألف دينار، فردّ الألف وأخذ الخصيّ فأعتقه وجعله خادمًا في الحجرة النبوية، وقال لقاصد

(١) «الضوء اللامع» للسخاوي (١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٨).
(٢) «الضوء اللامع» (٤/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨).

السلطان: لا تعد تأتينا قطّ بهدية، فإن اللَّه تعالى أغنانا عن مثل ذلك.

وكان لا يتردّد إلى السلطان ولا إلى غيره، وطلبه مرارًا فلم يحضر إليه، وقيل له: إن بعض الأولياء كان يتردد إلى الملوك والأمراء في حوائج الناس، فقال: اتباع السلف في عدم ترددهم أسلم لدين المسلم، وألّف كتابًا سمّاه «ما رواه الأساطين في عدم التردد إلى السلاطين»[١].

وكان الفقيه الزاهد الورع محمد الكبير السرغيني شيخ فاس القرويين وخطيبها وإمامها ومدرسها يحذر الطلبة من موالاة الولاة ويقول لهم: إنهم لا حاجة لهم بعالم أو صالح، وإنما قصدهم فيكم ما يتوقف عليكم من الإيصال إلى ما يريدون.

ويحذّر من موالاة أصحاب الدنيا والجاه ويقول: إنهم لا يخالطون الطالب إلا لتكميل دنياهم[٢].

*** ومنهم من كان السلطان يزوره فلا يعظّمه وربما لا يلتفت إليه:**

فهذا شيخ الإسلام الفقيه نصر النابلسي المقدسي الشافعي صاحب «الحجة على تارك المحجّة» كان لا يقبل صلة من أحد بدمشق، بل كان يقتات من غلّة تُحمل إليه من أرض نابلس فيخبز له كل يوم قُرصة في جانب الكانون.

زاره الملك تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان يومًا، فلم يقُم له، ولا التفت إليه وكذا ابنه الملك دُقاق، فسأله عن أحلّ الأموال التي يتصرّف فيها السلطان، قال: أحلُّها أموال الجزية، فقام من عنده، وأرسل إليه بمبلغ، وقال: هذا من الجزية ففرِّقه على الأصحاب، فلم يقبله، وقال: لا حاجة لنا

(١) انظر «الكواكب السائرة» (١/ ٢٢٦ ـ ٢٣١).
(٢) «نشر المثاني» (٤/ ٨٤ ـ ٨٩).

به، فلما ذهب الرسول لامه الفقيه نصر اللَّه المصيصي، وقال: قد علمت حاجتنا إليه، فقال: لا تجزع من فواته، فسوف يأتيك من الدنيا ما يكفيك فيما بعد فكان كما تفرّس فيه[١] .

❑ والشيخ القدوة الزاهد أبو العباس أحمد بن أبي غالب المعروف بابن الطَّلاّية الذي أفنى عمره في العبادة والقيام والصيام، ولا يقبل من أحد شيئًا.

❑ قال المظفر بن الجوزي: سمعت مشايخ الحربية يحكون عن آبائهم وأجدادهم أن السلطان مسعودًا لما أتى بغداد، كان يحب زيارة العلماء والصالحين، فالتمس حضور ابن الطَّلاَّية، فقال للرسول: أنا في هذا المسجد أنتظر داعي اللَّه في النهار خمس مرات، فذهب الرسول، فقال السلطان: أنا أولى بالمشي إليه، فزاره، فرآه يصلي الضحى، وكان يُطوّلها يصليها بثمانية أجزاء، فصلى معه بعضها، فقال له الخادم: السلطان قائم على رأسك، فقال: أين مسعود؟ قال: ها أنا، قال: يا مسعود، اعدلْ، وادع لي، اللَّه أكبر، ثم دخل في الصلاة فبكى السلطان وكتب ورقة بخطه بإزالة المكوس والضرائب وتاب توبة صادقة[٢] .

❑ وانظر إلى حافظ وقته السلفي حضر عنده السلطان صلاح الدين وأخوه الملك العادل لسماع الحديث، فتحدّثا، فأظهر لهما الكراهة وقال: أنتما تتحدثان وحديث النبي ﷺ يُقرأ؟! فأصغيا عند ذلك[٣] .

❑ وكان الإمام الرفاعي لا يقوم للرؤساء، ويقول: النظر إلى وجوههم يُقسّي القلب[٤] .

---

(١) «السير» (١٩/ ١٣٦ ـ ١٤٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٢٦٠ ـ ٢٦٣).

(٣) انظر «السير» (٢١/ ٥ ـ ٣٩).

(٤) «السير» (٢١/ ٧٧ ـ ٨٠).

❑ والإمام العالم العامل أبو عبداللَّه ابن ناصر الدرعي الذي وقع عليه اتفاق أهل المغرب والذي كثر عنه الأخذ شرقًا وغربًا كان شديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يخاف في اللَّه لومة لائم.

كان لا يُرى واقفًا بباب ملك من الملوك، ولم يخطب ويدعو لملك قط. ووقع بينه وبين بعض الملوك شنآن[١] على ذلك حتى همّ به ذلك الملك، ثم عُصِم منه، ونُقِل عنه حينئذ لما رأى خوف أصحابه عليه قال: رأيت كأن سورًا من حديد ضُرِب عليّ من ستر اللَّه تعالى، فلا تخافوا علينا[٢].

*** ولتجرّدهم وإرادتهم الدار الآخرة ردّوا عطايا السلاطين والأمراء وما قبلوها وهم أحوج من في الأرض إليها:**

قال إبراهيم بن محمد بن المنتشر: أهدى خالد بن عبداللَّه بن أُسَيْد عامل البصرة إلى عمي مسروق ثلاثين ألفًا وهو يومئذ محتاج فلم يقبلها[٣].

❑ وبعث معْن والي اليمن إلى معمر بن راشد بذهب فردّه، وقال لأهله: إنْ علم بهذا غيرنا لم يجتمع رأسي ورأسك أبدًا[٤].

❑ ولما مات إمام أهل السنة أحمد بن حنبل بعث ابن طاهر بأكفان وحنوط، فأبى صالح أن يقبله وقال: إن أبي قد أعدّ كفنه وحنوطه، وردّه، فراجعه، فقال: إن أمير المومنين أعفى أبا عبداللَّه مما يكره، وهذا مما يكره، فلستُ أقبله.

رحمك اللَّه يا ابن حنبل.. أين أيامك وعزك وقناعتك وزهدك في الفاني.

---

(١) بُغض.

(٢) «نشر المثاني» (٢/ ٢١١ ـ ٢١٥).

(٣) انظر «سير أعلام النبلاء» ترجمة مسروق (٤/ ٦٣ ـ ٦٩).

(٤) انظر «السير» (٧/ ٥ ـ ١٨).

*** للَّه درك يا ابن حنبل.. أنت إمام أهل السنة صدقًا، وشيخ الإسلام حقًّا:**

❑ قال أحمد بن سنان: بلغني أن أحمد بن حنبل رهن نعله عند خبّاز باليمن، وأكرى نفسه من جمّالين عند خروجه إلى عبدالرزاق باليمن، وعرض عليه عبدالرزّاق دراهم صالحة، فلم يقبلها.

قال حنبل: جرى بين أبي عبداللَّه وبين أبي كلام كثير، وقال: يا عم ما بقي من أعمارنا، كأنك بالأمر قد نزل، فاللَّه اللَّه، فإن أولادنا إنما يريدون أن يأكلوا بنا، وإنما هي أيام قلائل، وإنما هذه فتنة. قال أبي: فقلت: أرجو أن يُؤمنك اللَّه مما تحذر. فقال: كيف وأنتم لا تتركون طعامهم ولا جوائزهم؛ لو تركتموها لتركوكم، ماذا تنتظر؟ إنما هو الموت، فإما إلى جنة، وإما إلى نار، فطوبى لمن قدم على خير. قال: فقلتُ: ألست قد أُمرت بما جاءك مِنْ هذا المال بلا إشراف نفس ولا مسألة أن تأخذه؟ قال: قد أخذت مرة بلا إشراف نفس، فالثانية والثالثة؟ ألم تستشرف نفسك؟ قلت: أفلم يأخذ ابن عمر وابن عباس؟ فقال: ما هذا وذاك! وقال: لو أعلم أن هذا المال يُؤخَذ من وجهه، ولا يكون فيه ظلم ولا حيف لم أُبالِ.

وفي دولة المتوكل الذي أظهر السنة قالت أم الخليفة المتوكل: يا بني، اللَّه اللَّه في هذا الرجل فليس هذا ممن يريد ما عندكم.

وأتاه يحيى بن خاقان فقال له: إن أمير المؤمنين يُقرئك السلام، ويقول: كيف أنت في نفسك، وكيف حالك؟ ثم قال: قد وجّه معَي ألف دينار تُفرقها على أهل الحاجة. فقال: يا أبا زكريا، أنا في بيت منقطع، وقد أعفاني من كل ما أكره، وهذا مما أكره. فقال: يا أبا عبداللَّه الخلفاء لا يحتملون هذا. فقال: يا أبا زكريا تلطّف في ذلك. فدعا له ثم قام.

❑ قال صالح بن أحمد: كتب إليّ إسحاق بن راهويه: إن الأمير عبداللَّه بن طاهر وجّه إليّ، فدخلت إليه وفي يدي كتاب أبي عبداللَّه. فقال:

ما هذا؟ قلتُ: كتاب أحمد بن حنبل، فأخذه وقرأه، وقال: إني أحبه، وأحب حمزة بن الهيصم البُوشنجي، لأنهما لم يختلطا بأمر السلطان. قال: فأمسك أبي عن مكاتبة إسحاق.

❑ وقال إبراهيم بن أبي طالب: سمعتُ أحمد بن سعيد الرِّباطي يقول: قدمتُ على أحمد بن حنبل، فجعل لا يرفع رأسه إليّ، فقلت: يا أبا عبدالله، إنه يُكتب عني بخراسان، وإنْ عاملتني هذه المعاملة رَمَوا حديثي، قال: يا أحمد، هل بُدٌّ يوم القيامة من أن يُقال: أين عبدالله بن طاهر وأتباعه؟ فانظر أين تكون منه»[1].

❑ ولما علم بصلة المتوكل لابنه وعمه أنكر عليهم قال صالح: فهجرنا أبي، وسدّ الأبواب بيننا وبينه وتحامى منازلنا، ثم أُخبر بأخذ عمه، فقال: نافقتني وكذبتني!! ثم هجره وترك الصلاة في المسجد، وخرج إلى مسجد آخر يصلي فيه[2].

قال صالح: وكان رسول المتوكل يأتي أبي يبلِّغه السلام، ويسأله عن حاله. قال: فتأخذه قُشعريرة حتى نُدثِّره، ثم يقول: واللَّه لو أن نفسي في يدي لأرسلتها.

وذكر صالح قصة في توجيه أمير بغداد محمد بن عبدالله بن طاهر إلى أحمد ليحضر إليه، وامتناع أحمد وقوله: أنا رجل لم أخالط السلطان، وقد أعفاني أمير المؤمنين مما أكره وهذا مما أكره[3].

❑ وفي مرض موته وصف له متطيب قَرْعة تُشوى، ويُسقى ماءها.. هذا كان يوم الثلاثاء، فمات يوم الجمعة، فقال: يا صالح، قلتُ: لبيك،

(١) «السير» (١١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥).
(٢) «السير» (١١/ ٢٧٩).
(٣) «السير» (١١/ -٢٨٠).

قال: لا تُشوى في منزلك، ولا في منزل أخيك[١] لكونهما كانا يقبلان أُعطيات السلطان والأمراء.

❑ وفي مرض الموت جاءه حاجب ابن طاهر، فقال: إن الأمير يُقرئك السلام، وهو يشتهي أن يراك. فقال: هذا مما أكره، وأمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره[٢].

*** الإمام ابن جرير الطبري:**

قال الذهبي: قيل إن المكتفي أراد أن يُحبِّس وقفًا تجتمع عليه أقاويل العلماء، فأُحضر له ابن جرير، فأملى عليهم كتابًا لذلك، فأُخرجت له جائزة، فامتنع من قبولها، فقيل له: لا بد من قضاء حاجة. قال: أسأل أمير المؤمنين أن يمنع السؤال يوم الجمعة[٣].

❑ والفقيه الكبير الخَبُوشاني الشافعي عاش عمره لم يأخذ درهمًا لملك، ولا من وَقْف، ودُفن في الكساء الذي صحبه من بلده.

*** والشيخ الصالح العالم الزاهد محمد المغربي:**

كان ينشد كثيرًا:

اقنع بلقمة وشربة ماء ولبس الخيش وقل لقلبك ملوك الأرض راحوا بيش

دخل عليه السلطان قايتباي يزوره ورسم له بألف دينار فردّها وأنشد البيت فبكى السلطان قايتباي حتى بلّ منديله وقال له: فرِّقها على المحبين فقال له: من تعب في تحصيلها فهو أولى بتفريقها ولم يقبل الألف دينار[٤].

---

(١) «السير» (١١/ ٣٣٥).

(٢) «السير» (١١/ ٣٣٦).

(٣) «السير» (١٤/ ٢٦٧ ـ ٢٨٢).

(٤) «السير» (٢١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٧).

* **وشيخ الإسلام تقي الدين البلاطنسي**: استوطن دمشق، وبعث إليه نائب دمشق بمال فردّه، فبعث إليه مرة أخرى وقال للرسول: قل له: إنه حلال، فردّه أيضًا وقال: أنا في غنية عنه. وبعث إليه إبراهيم أغا نائب القلعة بمال فسأله الدعاء فردّه ولم يقبله ودعا له، وقال للرسول: قل له غيري أحوج إليه مني. وعيّن له متولي الجامع الأموي ثمانية عثمانية في مقابل تدريسه به فلم يقبل ليكون تدريسه بغير عِوض.. وكان له مهابة في قلوب الفقهاء والحكام يُرجع إليه في المشكلات وكان لا يتردد لأحد لغناه. وكان أمّارًا بالمعروف نهّاءً عن المنكر، لا يخاف في اللَّه لومة لائم ولا يداهن في الحق، قائمًا بنصرة الشريعة، حاملاً لواء الإسلام، مجدًّا في العبادة، مجانبًا للرياء[٢].

▫ وانظر إلى زاهد اليمن وورعها العلاّمة أحمد بن سعد بن الحسين المسوريّ اليمنيّ: قال عنه فضل اللَّه المحبي في كتابه «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» (١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٧): كانت الأئمة تراسله بالكتب والهدايا فيأباها ولا يرى في ذلك من المُلوك عُقباها، فمن ذلك ما أجاب على الأمير الكبير الشريف الحسين بن أحمد الخواجي صاحب صنعاء وقد كتب إليه كتابًا وأصحبه هدية، فكتب إليه:

«.. كنتُ أظنكم رعاكم اللَّه وأولئك الجماعة ممن له في خوف اللَّه نصيب وممن أقلع عما يُوجب البعد من القريب المجيب، وممن دعواه صادقة أنه لا يريد إلا اللَّه ولا يسعى إلا في طاعته وتقواه، فخدعتموني تاللَّه فانخدعت ولو أخذت بالحزم الذي هو سوء الظن لما أبعدت، فحملتم تلك الحالة مني على ما زهّدني واللَّه وغيري من المؤمنين فيكم، ونبّهني على الحذر

(١) «الكواكب السائرة» (١/ ٧٤ ـ ٧٧).

(٢) «الكواكب السائرة» (٢/ ٨٥ ـ ٨٦).

والريب في كل ما يصدر من قول أو فعل عنكم إذ أحللتموني محلاً لست من أهله، وكتبتم إليّ بتصدير هديتكم المردودة إليكم غير مشكورة ولا محمودة ولم ترها والحمد للّه عيني وما لمستها يدي إذ أردتم خديعتي عن ديني والتوصّل بها إلى ما تريدون من أغراض الأهواء في هلكتي فأكون كما قيل:

بتُّ كأني ذُبالة[1] نُصِبتْ تضيء للناس وهي تحترقُ

ومعاذ اللّه أن أكون ممن يبيع دينه بكل الدنيا فضلاً عن عرض منها هو أقلّ وأدنى، أو أن يحبط أعماله ويبطلها بإماطة الأوساخ عن الناس. لقد ضللتُ إذًا وما أنا من المهتدين، وكيف إن بقي شيء من المعقول آمر الناس بالبرّ وأنسى نفسي، وأتصدّر لإمام الحق في إنشاء المواعظ يُخطب بها على المنابر لنصيحة الخلق وأخونها وهي أعزّ الأنفس عندي».

ومنها: «وأعجب من هذا طارق يطرقنا بملفوفة في وعائها ومعجونة كما عجنت بريق حية أرياقها فقلتُ: أصِلة أم زكاة وصدقة فذلك محرم علينا أهل البيت، قال: لا ذا ولا ذاك ولكنها هدية، فقلت: هبلتك الهبول، أعن دين اللّه أتيتني لتخدعني أمخبط أنت أم ذو جنّة، أما واللّه لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي اللّه في نملة أسلبها خلب شعيرة ما فعلتها، وإن دنياكم هذه لأهون عند اللّه من ورقة في فم جرادة. نعوذ باللّه من سيئات العمل وقبح الزلل وبه نستعين».

ثم جعل يعدّد آباءه من أهل البيت ثم قال: «اللّهم إني لا أقول ذلك افتخارًا لي ولا تزكية لنفسي، بل لما ينبغي من تجنب مواقف التهم معترف بأني أحقر من أن أُذكر وأهون من قلامَه الظفر».

---

(١) الذُّبالة: الفتيلة.

ثم قال: «ولولا تحرّج أمير المومنين عليّ في إعادة الجواب لما توجّه مني بعد ذلك خطاب، وهذا إن شاء اللّه تعالى بيني وبينكم آخر كتاب والسلام».

*** والشيخ الصالح ولي اللّه الذي يستسقي به المطر محمد بن عمر العباسي الدمشقي الصالحي عابد دمشق:**

لمّا حُبس الغيث عن دمشق سنة سبعين وألف واستسقى أهلها مرات فلم يمطروا فأمره نائب الشام فالخروج للاستسقاء بهم فخرج وهو في غاية الخجل فقد كان يؤثر الخمول على الظهور فقال: اللّهم إن هؤلاء عبادك قد أحسنوا الظن بي فلا تفضحني بينهم فأغيثوا من ساعتهم، وما رجعوا إلى البلد إلا بمشقة من كثرة المطر، واستمر المطر ثلاثة أيام.

كان ـ رحمه اللّه ـ لا يقبل من الحكام هدية ولا يتردّد إليهم[1].

*** والإمام الداعي إلى دار السلام علم اللّه بن فضيل بن معظم الشريف الحسني البريلوي:**

بلغ الغاية من هضم النفس، وكان يأتي بحزمة من الحطب على رأسه يبيعها في عسكر خاله.

وقد عرض عليه عالمكير بن شاهجهان صاحب الهند وملكها أقطاعًا من الأرض فلم يقبل، واستأثر الفقر والفاقة.

كان أحسن الناس وجهًا وأتمهم خلقة، قد غشيه نور الإيمان وسيما الصالحين، إذا خرج نهارًا ازدحم الناس على تقبيل يده ورؤية وجهه وهو يكره ذلك وينفر عنهم، وكان يغضب إذا مُدِح ويستبشر إذا نُصِح، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحتسب على كل من رأى عليه أثرًا خلافًا

(١) «خلاصة الأثر» (٤/١٠٣).

للشرع سواءً كان ملكًا قاهرًا أو عالمًا كبيرًا أو شيخًا جليلاً، وكان يكثر الرد على المبتدعين ويظهر فضائحهم مع استيلائهم على بلاد المسلمين في عصره.

رأى سلطان الهند عالمكير في المنام أن رسول اللَّه ﷺ تُوفي في تلك الليلة، فعرض على العلماء والمشايخ وسألهم تأويله، فأولوه بأنه توفي في تلك الليلة من كان له نسبة صحيحة بالنبي ﷺ وقدم راسخة في اتباعه، ثم أُخبر بأن السيد علم اللَّه توفي في تلك الليلة، فأجمع العلماء والمشايخ على أنه هو المعبَّر عنه بذلك المنام[1].

*** والشيخ الزاهد مرزا مظهر جان جانان الدهلوي الحسني:**

كان من أعاجيب الزمان في الاستغناء عن الناس والزهد والورع واتباع السنة السنيّة واقتفاء آثار السلف.

وكان يقول: إن ردّ الهدية ممنوع، ولكنّا ما أُمِرنا بالأخذ وجوبًا، إني أقبل من أصحابي يأتون بها بإخلاص واحتياط ولا أقبل من الأغنياء فإن هداياهم قلّما تخلو عن الشبه، وربما يتعلّق بها حقوق العباد.

بعث محمد شاه وزيره قمر الدين خان إلى الشيخ مرزا وقال له: إن اللَّه أعطاني مُلكًا كبيرًا فخذوا مني ما شئتم، فأجابه إن اللَّه تعالى يقول: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ فلّما كانت أمتعة الأقاليم السبعة قليلة، فكيف بما في يدكم من قطعة حقيرة من إقليم واحد، والفقراء لا يخضعون للملوك لأجل ذلك الأقلّ.

وأعطاه نظام الملك ثلاثين ألفًا من النقود فلم يقبل، فقال له نظام الملك: إن لم تكن لكم حاجة إليها فخذوها ثم قسّموها على المساكين، فقال: إني لست بأمينكم إن شئتم التقسيم فباشروه بأنفسكم إذا خرجتم من

(١) «الإعلام» (٥/ ٣٠١ ـ ٣٠٢).

داري»[١].

*** وشيخ أهل المغرب عبدالقادر بن علي بن يوسف الفاسي:**

□ أحيا اللَّه به علوم الحديث والمغازي والسير بالمغرب في القرن الحادي عشر، كان ـ رحمه اللَّه ـ لا تأخذه في اللَّه لومة لائم، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، قوّالاً للحق، يواجه به الكبراء والملوك، قد أُعطي قوة على التلطف في توصيل ذلك وإبلاغه على أجمل صوره، حتى تنفعل له النفوس الأبيّة، وتذعن لسامعها آذان الأغيال الجبابرة، ولا تستنكف عن الانقياد له الأنوف الشامخة، مهابًا في الأعين، معظمًا في القلوب.

كان عالم وقته، وكان أزهد العلماء بوقته فيما في أيدي الناس، وكان مع اتساع علمه وعظم جاهه يأكل من عمل يده، فكان ينسخ الجامع الصحيح للبخاري كثيرًا، وكان يبيعه يتعيّش به.

ولما تولى السلطان الرشيد، وهو حينئذ كبير السن، أراد أن يمدّه بشيء من الدنيا، فبلغه ذلك، فقال: «قولوا له يشغل نفسه بغيري، فالذي رزقني من المهد إلى أن ابيّضت لحيتي هو يرزقني». ثم جعل يحكي ما قاله الشيخ السنوسي لبعض ملوك وقته حين عرض عليه شيئًا من الدنيا فقال له: «أما نيّتك فاللَّه يجازيك عليها خيرًا، وأما أنا فأخاف أن تفيض عليّ بحور الآخرة، فأردت أن تجدني حينئذ خفيفًا من الدنيا لعلّي أقطعها بخفة»[٢].

*** والشيخ عمر العقيبي الدمشقي الشافعي المعروف بالإسكاف:**

يبعث إليه عيسى باشا كافل المملكة الشامية بثمانين دينارًا ذهبًا فردّها عليه وقال: «نحن في كفاية وغنية عنها ولا يجوز لنا تناولها إلا مع

(١) «الإعلام» (٦/ ٥٥ ـ ٥٩).
(٢) «نشر المثاني» (٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧٩).

الاضطرار، ولا اضطرار لنا».

يقول هذا ـ رحمه اللَّه ـ مع شده فقره فقد كان ينظر بستانًا بحماة وفيه العنب والتين وكثير من أنواع الفواكه فيقطفون العنب وغيره ويبيت في البستان فيصبح وعليه النّدى فيكتسي بذلك حُسنًا فلا يلتفت إليه ولا يُعرِّج عليه ولا يأكل منه حبّة واحدة.

❑ جاءه إنسان يطلب الإرشاد والتزمه فأمره أن يعترف بين يديه بظلامات الناس ليأمره بالتوبة منها والتحلل وكيف يتوب ويخرج من المظالم، فاعترف بين يديه بقتل إنسان عمدًا، فقال له: لا بد أن تعترف لأوليائه وتطلب منهم العفو، فإن عَفَوْا كان طريقك مبني على أمر صحيح، وإن اقتُصَّ منك خرجت من عهدة الجناية في الدنيا باستيفائهم منك ما لهم عليك من القصاص، والصبر على القصاص في الدنيا أهون من الصبر على عذاب الآخرة، ففعل واعترف عند أولياء القتيل فأمسكوه وضيّقوا عليه واستعدوا عليه عند الحاكم، ثم لمّا بلغهم قصته مع الشيخ عمر عفوْا عنه ووهبوه له[1].

عزّ العلماء الربانيين العاملين وشرفهم وفضلهم

❑ يرحم اللَّه من قال:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظّموه في النفـوس لعُظِّمَا

كان العلماء الربانيون يهابون ربهم وحده فهابتهم الخلائق وملوك الأرض، فمن خاف اللَّه أخاف اللَّه منه كل شيء، ومن خاف غير اللَّه وقدّم الخوف من العبيد المخلوقين على الخوف من ربّ العالمين خوّفه اللَّه من كل شيء.

---

(١) «الكواكب السائرة» (٢/ ٢٢٩ ـ ٢٣٣).

❑ وللَّه ما أحلى قول القائل عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس:

يدع الجواب فلا يراجع هيبة والسائلون نواكس الأذقان

نور الوقار وعزّ سلطان التقى فهو المهيب وليس ذا سلطان

❑ يكفيهم شرفًا وعزًّا أنهم سبب لهداية الناس:

قال الأوزاعي: من كان مقتديًا، فليقتد بمثل ابن محيريز، إن اللَّه لم يكن ليضلّ أمة فيها ابن محيريز[١].

❑ وهم الذين يستشفى بحديثهم، وتنزل الرحمة بذكرهم، ويسّاقط القطر من السبب بدعائهم.

قالت عائشة رضي الله عنها: عند ذكر عمر تنزل الرحمة.

وقال ابن حنبل عن صفوان بن سليم: من الثقات، يُستشفى بحديثه، وينزل القطر من السماء بذكره[٢].

*** وهم أمان للناس:**

قال رجاء بن حيوة: بقاء ابن محيريز أمان للناس.

قال هلال بن خباب: قلت لسعيد بن جُبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: إذا ذهب علماؤهم.

قال رجل لميمون بن مهران: يا أبا أيوب! ما يزال الناس بخير ما أبقاك اللَّه لهم».

قال ـ رحمه اللَّه ـ : ثلاث لا تبْلُوَنّ نفسك بهن: لا تدخل على السلطان وإن قلت: آمره بطاعة اللَّه، ولا تصغينّ بسمعك إلى هوى، فإنك

(١) «السير» (٤/ ٤٩٤ ـ ٤٩٦).

(٢) «السير» (٥/ ٣٦٤ ـ ٣٦٩).

لا تدري ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل على امرأة ولو قلت: أعلمها كتاب اللَّه[١] .

قال أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري شيخ الإسلام عن إمام الأئمة ابن خزيمة: إن اللَّه ليدفع البلاء عن أهل هذه المدينة لمكان أبي بكر محمد بن إسحاق[٢] .

*** وفي بقاء العلماء العاملين الربانيين صلاح لهذه الأمة:**

قال يونس بن عبدالأعلى: أبو زرعة وأبو حاتم إماما خراسان، ودعا لهما وقال: بقاؤهما صلاح للمسلمين[٣] .

*** وهم سبب لنصر الأمة:**

قال مسلمة بن عبدالملك أمير السرايا: برجاء بن حيوة وبأمثاله نُنصر وما أمر محمد بن واسع ودعاؤه عند فتح كابل، وما خبر ابن تيمية في موقعة مرج الصفر من الناس ببعيد.

❑ وهم الذين ينقّون الدين مما علق به، وهم الذين ينفون عنه تحريف الغالين انظر إلى الجبل الشامخ أبي إسحاق الفزاري، وهو الذي أدّب أهل الثغور كان يأمر وينهى، وإذا دخل الثغر رجل مبتدع أخرجه.

أمر سلطانًا ونهاه، فضربه مائتي سوط، فغضب له الأوزاعي وتكلّم في أمره.

أخذ الرشيد زنديقًا ليقتله، فقال الرجل: أين أنت من ألف حديث وضعتها؟

---

(١) انظر «السير» (٥/ ٧١ ـ ٧٨).

(٢) انظر ترجمته في «السير» (١٤/ ٣٦٥ ـ ٣٨٢).

(٣) «السير» (١٣/ ٢٤٧ ـ ٢٦٣).

قال: فأين أنت يا عدو اللَّه من أبي إسحاق الفزاري وابن المبارك يتخللانها، فيخرجانها حرفًا حرفًا.

❑ وللَّه در القائل عنهم:

تحيا بكم كل أرض تنزلون بها ... كأنكم في بقاع الأرض أمطار
وتشتهي العين فيكم منظرًا حسنًا ... كأنكم في عيون الناس أقمارُ
لا أوحش اللَّه ربعًا من زيارتكم ... يا من لهم في الحشا والقلب تذكارُ

كلمات للحياة

*** أديب الإسلام مصطفى صادق الرافعي يبين علو شأن العلماء الربانيين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر في شخص سيدهم أحمد بن حنبل:**

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «كنتُ لا أزال أعجب من صبر شيخنا أحمد بن حنبل، وقد ضُرِب بين يديْ المعتصم بالسياط حتى غُشي عليه، فلم يتحوّلْ عن رأيه، فعلمتُ الآن أنه لم يجعل في نفسه للضرب معنى الضرب، ولا عرف للصبر معنى الصبر الآدمي، ولو هو صبر على هذا صبر الإنسان لجزع وتحوّل، ولو ضُرِب ضرب الإنسان لتألمّ وتغيّر، ولكنه وضع في نفسه معنى ثبات السنة وبقاء الدين، وأنه هو الأمة كلها لا أحمد بن حنبل، فلو تحوّل لتحوّل الناس، ولو ابتدع لابتدعوا، فكان صبره صبر أمة كاملة لا صبر فرد، وكان يُضرب بالسياط ونفسه فوق معنى الضرب، فلو قرضوه بالمقاريض ونشروه بالمناشير، لما نالوا منه شيئًا؛ إذ لم يكن جسمه إلاّ ثوبًا عليه، وكان الرجل هو الفكر ليس غير.

هؤلاء قوم لا يرون فضائلهم فضائل، ولكنهم يرونها أمانات قد ائتمنوا عليها من اللَّه، لتبقى بهم معانيها في هذه الدنيا، فهم يُزرعون في الأمة زرعًا بيد اللَّه، ولا يملك الزرع غير طبيعته، وما كان المعتصم ـ وهو يريد شيخنا

على غير رأيه وعقيدته ـ إلا كالأحمق، يقول لشجرة التفاح: أثمري غير التفّاح».

من ارتقى إلى سماء الرافعي عرف لآلئ بشر بن الحارث الحافي حين يقول عن الذين أجابوا في محنة خلق القرآن: «وددت أن رءوسهم خُضبت بدمائهم، وأنهم لم يجيبوا»[١].

❑ نعم مكانة العلماء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر عالية يهابهم من أجلها السلاطين والأمراء.

قال يعقوب بن شيبة: كان يزيد بن هارون يُعَدُّ من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

❑ وقال يحيى بن أكثم: قال لنا المأمون: لولا مكان يزيد بن هارون، لأظهرت القرآن مخلوق، فقيل: ومَن يزيد حتى يُتَّقى؟ فقال: ويحك إني لأرتضيه لا أن له سَلْطنه، ولكن أخاف إن أظهرته، فيردّ عليّ، فيختلف الناس وتكون فتنة[٢].

❑ وانظر إلى المعتصم مع إمام أهل السنة:

قال أبو زرعة: دعا المعتصم بعمِّ أحمد، ثم قال للناس: تعرفونه؟ قالوا: نعم، هو أحمد بن حنبل، قال: فانظروا إليه، أليس هو صحيح البدن؟ قالوا: نعم. ولولا أنه فعل ذلك، لكنت أخاف أن يقع شيء لا يُقام له. قال: ولما قال: قد سلّمته إليكم صحيح البدن، هدأ الناس وسكنوا.

قال الذهبي: قلتُ: ما قال هذا مع تمكنه في الخلافة وشجاعته إلاّ عن كبير أمر كأنه خاف أن يموت من الضرب، فتخرج عليه العامة، ولو خرج

(١) «السير» (١١/ ٣٢٣).

(٢) «السير» (٩/ ٣٥٨ ـ ٣٧١).

عليه عامة بغداد لربما عجز عنهم[١] .

انظر إلى علو مكانة العلماء وعزّهم لما قال الإمام أحمد بن حنبل: «قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز».

لما قبض الإمام أحمد صاح الناس، وعلتِ الأصوات بالبكاء حتى كأن الدنيا قد ارتجّت، وامتلأت السكك والشوارع.

قال صالح بن أحمد: وحضر نحو مائة من بني هاشم، ونحن نكفِّنه، وجعلوا يُقبّلون جبهته حتى رفعناه على السرير.

قال عبدالوهاب الورّاق: ما بلغنا أن جمعًا في الجاهلية ولا الإسلام مثله ـ يعني: من شهد الجنازة حتى بلغنا أن الموضع مُسِح وحُرِز على الصحيح، فإذا هو نحو من ألف ألف وحزرنا على القبور نحوًا من ستين ألف امرأة، وفتح الناس أبواب المنازل في الشوارع والدروب.

قال عبدالوهاب الورّاق: أظهر الناس في جنازة أحمد بن حنبل السنة والطعن على أهل البدع، فسرّ اللَّه المسلمين بذلك على ما عندهم من المصيبة لما رأوا من العزّ وعلو الإسلام وكبْت أهل الزيغ.

وما صلوا ببغداد في مسجد العصر يوم وفاة أحمد.

❑ ولو لم يكن لأهل العلم إلا المنقبة التالية لكفتهم: «لولا أصحاب المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر». وأوثق ما لديهم المحابر وأغلى ما عند الشهيد دمه يوزن بأدنى ما عند العالم وهو مداد.

❑ وأهل الدنيا يعرفون شرفهم وفضلهم: فهذا ملك الهند شاهجهان بن جهانكير التيموري يزن العلاّمة الإمام عبدالحكيم السيالكوتيّ شيخ الهند مرتين بالفضة في الميزان ومنحه ما جاء في الوزن، وهو كل مرة ستة آلاف من

(١) «سير أعلام النبلاء» ـ ترجمة الإمام أحمد (١١/ ١٧٧ ـ ٣٥٨).

النقود[١] .

❑ تعالَ وشاهد عزّ العلماء العاملين:

الشيخ كمال الدين بن الهمام قرره الأشرف برسباي سلطان مصر شيخًا في مدرسته فأعرض عنها بعد مدة، فعارضه جوهر الخازندار بغيره فغضب وقال: اشهدوا عليّ أني عزلت نفسي من هذه المشيخة وخلعتها كما خلعت طيلساني هذا، وتحوّل في الحال لبيت في باب القرافة، وبلغ ذلك السلطان فشقّ عليه وراسله يستعطف خاطره مع جقمق الذي صار سلطانًا وغيره من الأعيان فلم يُجب، وخشي جوهر غضب السلطان عليه بسببه فبادر للاجتماع به لتلافي الأمر فما أمكنه، فجلس بزاوية هناك كانت عادة الشيخ الصلاة فيها حتى جاء فقام إليه حاسر الرأس ذليلاً، فقبّل قدمه مصرّحًا بالاعتذار والاستغفار فأجابه بأنني لم أتركها بسببك بل للّه تعالى.

وداوم على الأمر بالمعروف وإغاثة الملهوفين والإغلاظ على الملوك فمن دونهم[٢] .

* الملك الأشرف قايتباي الجركسي سلطان مصر والشيخ عبدالقادر الدشطوطي:

مرّ الملك قايتباي وهو راكب في موكبه على الشيخ عبدالقادر الدشطوطي، فنزل إليه وقبّل يديه، فقال الشيخ عبدالقادر له يومًا والذباب قد انعطف عليه: يا قيتباي، قل لهذا الذباب يذهب عني، فحار قايتباي فقال: يا سيدي: كيف يسمع الذباب مني. قال: وكيف تكون سلطانًا ولا يسمع

(١) «الإعلام» (٥/ ٢٢٩ ـ ٢٣١).

(٢) «الضوء اللامع» للسخاوي (٨/ ١٢٧).

الذباب منك. ثم قال سيدي عبدالقادر: يا ذباب اذهب عني فلم يبق عليه ذبابة[١].

❑ وتعالَ إلى ما قصّه العالم المفسر ابن كمال باشا وكان جده من أمراء الدولة العثمانية حكى عن نفسه أنه كان مع السلطان بايزيد خان في سفر وكان وزيره حينئذ إبراهيم باشا بن خليل باشا، وكان في ذلك الزمان أمير ليس في الأمراء أعظم منه يُقال له: أحمد بك بن أورنوس، قال: فكنتُ واقفًا على قدمي قدّام الوزير وعنده هذا الأمير المذكور جالسًا إذ جاء رجل من العلماء رث الهيئة فجلس فوق الأمير المذكور ولم يمنعه أحد عن ذلك فتحيّرت في هذا الأمر وقلت لبعض رفقائي: من هذا الذي تصدّر على مثل هذا الأمير. قال: هو رجل عالم مدرس يُقال له: المولى لطفي، قلت: كم وظيفته؟ قال: ثلاثون درهمًا.

قلت: فكيف يتصدّر على هذا الأمير ووظيفته هذا القدر؟ فقال رفيقي: العلماء معظّمون لعلمهم، فإنه لو تأخّر لم يرض بذلك الأمير ولا الوزير، فنويت أن أشتغل بالعلم الشريف[٢].

❑ قال الشيخ عبدالوهاب الشعراوي عن الشيخ العلامة شهاب الدين السنباطيّ الشافعي الواعظ: لم نرَ أحدًا من الوعاظ أقبل عليه الخلائق مثله، وكان إذا نزل من فوق الكرسي يقتتل الناس عليه.

ولما مات أظلمت مصر لموته وانهدم ركن عظيم من الدين، وما رأيت في عمري كله أكثر خلقًا من جنازته إلا جنازة الشيخ شهاب الدين الرملي[٣].

---

(١) «الكواكب السائرة» (١/ ٢٩٧ ـ ٣٠٠).

(٢) «الكواكب السائرة» (٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨).

ويرحم اللَّه من قال: طلبنا العلم لغير اللَّه فأبى إلاّ أن يكون للَّه.

(٣) «الكواكب السائرة» (٢/ ١١١ ـ ١١٢).

* ملك العلماء عبدالعلي اللكهنوي والأمير والاجَاه محمد علي خان الكوباموي:

لما نزل ملك العلماء العلاّمة الكبير عبدالعلي بن نظام الدين السُّهالْوي اللكهنوي ومعه ستمائة نفس من رجال العلم بمدْراس ووصل إلى باب القصر استقبله الأمير بسائر أقاربه وأركان دولته راجلاً فأراد العلاّمة أن ينزل من المحفّة[1] فمنعه الأمير عن ذلك، وحمل المحفّة على عاتقه، ودخل دار الإمارة في قصر من قصورها، وأجلسه على الوسادة وقبّل قدميه، وتعود كل يوم أن يحضر لديه.

❑ «والإمام ابن دقيق العيد عظمته الملوك، وكان السلطان لاجين ينزل له عن سريره ويُقبِّل يده»[2].

❑ وهذا سلطان اليمن في أيام الفيروز أبادي يكتب إلى الفيروز أبادي: «كانت اليمن عميًا فاستنارت فكيف يمكن أن تتقدم وأن تعلم أن اللّه قد أحيا بك ما كان ميتًا من العلم فباللّه عليك إلا ما وهبت لنا بقية هذا العمر، واللّه يا مجد الدين يمينًا بارّة إني أرى فراق الدنيا ونعيمها ولا فراقك أنت اليمن وأهله»[3].

* الشيخ الزاهد محمد بن حمزة الدمشقي المعروف بابن شمس الدين والسلطان محمد الفاتح:

ظهر فضل الشيخ ابن شمس الدين حتى أن السلطان محمد خان ـ

(١) شيء شبيه بالهودج ولكنه يحمل على أعناق الرجال غالبًا.
(٢) «الإعلام» (٧/ ٢٨٩ ـ ٢٩٤).
(٣) «الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ٢١٠ ـ ٢١٤).
(٤) «الضوء اللامع» للسخاوي (١٠ ـ ٧٩ ـ ٨٦).

الفاتح ـ سلطان الروم دعاه للجهاد فقال ابن شمس الدين للسلطان: «سيدخل المسلمون القلعة في يوم كذا، فجاء ذلك الوقت الذي عيّنه لفتح القلعة فحصل مع بعض أصحابه فزع شديد من السلطان على الشيخ إذ لم يصح الخبر، فذهب إليه في تلك الحال فوجده في خيمته ساجدًا على التراب مكشوف الرأس وهو يتضرّع ويبكي فرفع رأسه وقام على رجليه وكبّر وقال: الحمد للَّه مُنحنا فتح القلعة. قال الراوي: فنظرت إلى القلعة، فإذا العسكر قد دخلوا بأجمعهم ففرح السلطان بذلك، وقال: ليس فرحي لفتح القلعة إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني.

ثم بعد يوم جاء السلطان إلى خيمة صاحب الترجمة وهو مضطجع فلم يقم له، فقبّل السلطان يده وقال له: جئتك لحاجة، قال: وما هي؟ قال: أن أدخل الخلوة عندك، فأبى، فأبرم عليه السلطان مرارًا وهو يقول: لا، فغضب السلطان وقال: إنه يأتي إليك واحد من الأتراك فتُدخله الخلوة بكلمة واحدة وأنا تأبى عليّ، فقال الشيخ: إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينك فتختل أمورها فيمقت اللَّه علينا ذلك، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر له شيئًا من النصائح، ثم أرسل إليه ألف دينار فلم يقبل، ولما خرج السلطان محمد خان قال لبعض من معه: ما قام الشيخ لي، فقال له: لعلّه شاهد من الزهو بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسّر مثله للسلاطين العظام، فأراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو[1].

*** الملوك حُكّام على الناس، والعلماء حكّام على الملوك:**

«قال أبو الأسود الدؤلي: الملوك حكّام على الناس، والعلماء حكّام

(١) «البدر الطالع» للشوكاني (٢/ ١٦٦ ـ ١٦٩).

على الملوك»[١] .

رحم اللَّه من تسابق أبناء الملوك إلى تقديم نعالهم إليهم وحملها:

قال الخطيب البغدادي: «كان الخليفة المأمون قد وكّل الفرّاء يُلقّن ابنيه النحو، فلما كان يومًا أراد الفرّاء أن ينهض إلى بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعل الفرّاء يُقدّمانها له، فتنازعا أيهما يُقدّمها، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردة، فقدّماها، وكان المأمون له على كل شيء صاحب خبر، فرفع إليه ذلك الخبر فوجّه إلى الفرّاء فاستدعاه، فلما دخل عليه قال له: من أعزّ الناس؟ قال: ما أعرف أحدًا أعزّ من أمير المؤمنين، قال: بلى، من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليّا عهد المسلمين، حتى رضي كل واحد منهما أن يُقدِّم له فردة. قال: يا أمير المؤمنين، لقد أردتُ منعهما من ذلك، ولكن خشيتُ أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها، وأكسر نفوسهما عن شريفة حصلا عليها، وقد رُوي عن ابن عباس أنه أمسك للحسن والحسين رضي الله عنهما ركابيْهما حتى خرجا من عنده؟ فقال له بعض من حضر: أتُمسك لهذين الحَدَثَيْن ركابيهما وأنت أسنّ منهما؟ فقال له: اسكت يا جاهل، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل.

قال له المأمون: لو منعتهما عن ذلك؛ لأوجعتك لومًا وعُتبًا، وألزمتك ذنبًا، وما وضع ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرهما، وبيّن عن جوهرهما»[٢] .

❑ وصبّ هارون الرشيد أمير المؤمنين الماء لأبي معاوية الضرير، فقال: أتدري من يصب ماء الوضوء عليك؟ قال: لا. قال: أمير المؤمنين، إكرامًا

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبدالبر (١/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧).

(٢) «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (١٤/ ١٥).

للعلم بأبي وأمي علماء ربانيون خدمتهم الملوك، ملوك الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد، وعلماء الآخرة تخدمهم الملوك.

❑ وابن تيمية الذي ملأ مشارق الأرض ومغاربها أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر وصدْعًا بالحق لما مات في سجنه دخل أربعة من كبار الحفّاظ عليه يغسّلونه منهم الحافظ المزي، وكانت جنازته أكبر جنازة في تاريخ الإسلام بعد جنازة إمام أهل السنة ابن حنبل، وما استطاع شانئوه أن يخرجوا يوم موته خوفًا من بطش العامة بهم.

*** شيخ الإسلام أبو خالد الإمام يزيد بن هارون:**

قال عنه الذهبي: كان رأسًا في العلم والعمل، كبير الشأن.

قال أبو نافع سبط يزيد بن هارون: كنت عند أحمد بن حنبل وعنده رجلان ـ وأحسبه قال: شيخان، فقال أحدهما: يا أبا عبداللَّه، رأيت يزيد بن هارون في المنام، فقلت له: يا أبا خالد، ما فعل اللَّه بك؟ قال: غفر لي وشفّعني وعاتبني، قال: قلتُ: غفر لك وشفّعك قد عرفتُ، ففيم عاتبك؟ قال: قال لي: يا يزيد، أتحدِّث عن جرير بن عثمان؟ قال: قلتُ: يا رب ما علمتُ إلاّ خيرًا، قال: يا يزيد، إنه كان يبغض أبا حسن عليّ بن أبي طالب.

وقال الآخر: أنا رأيت يزيد بن هارون في المنام، فقلتُ له: هل أتاك منكر ونكير؟ قال: أي واللَّه، وسألاني: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ قال: أمثلي يُقال هذا؟! وأنا كنت أعلم الناس بهذا في دار الدنيا؟ فقالا لي: نم كنومة العروس لا بؤس عليك»[1].

(١) «تاريخ بغداد» (١٤/٣٤٦، ٣٤٧).

* **العلماء ملوك الدنيا:**

قدم الرشيد مدينة «الرقة» يومًا في موكبه، فأشرفت أم ولد لهارون الرشيد من برج الخشب والناس يتزاحمون خلف عبداللَّه بن المبارك ـ رحمه اللَّه ـ حتى تقطّعت منهم النعال وارتفعت الغبرة... فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟! قالوا: عالم أهل خراسان قَدِم الرقة يُقال له عبداللَّه بن المبارك ـ فقالت: هذا واللَّه المُلك.. لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بِشُرْط وأعوان[1].

❑ وسُئِل ابن المبارك: مَنْ الناس؟ قال: العلماء.

قيل: فمن الملوك؟؟ قال: الزهاد. قيل: فمن السِّفْلة؟؟ قال: الذي يأكل بدينه.

❑ ورضي اللَّه عن عمر بن عبدالعزيز حيث قال: لأن يكون لي مجلس من عبيداللَّه[2] ـ أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها.

* **طاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء:**

أجاد ابن القيم حين أوجز قوامة العلماء على الأمة حكامًا ومحكومين باعتبارهم أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففسّر في سطور قليلة قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قال: إن أولي الأمر العلماء أو الأمراء.

ثم قال: والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول ﷺ، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء.

---

(١) «تاريخ بغداد» (١٠/١٥٦)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٨٤)، و«وفيات الأعيان» (٣/ ٣٣).

(٢) أحد فقهاء المدينة السبعة.

* إلى اللَّه نشكو أهل الممالك من أهل ملَّتنا:

«ماذا يملك أفذاذ الرجال الذين أعطاهم اللَّه البصيرة والنور حينما يَرَونَ الحالة الأليمة التي تتردَّى فيها الأمة؟! إلا أن يتوجهوا إلي ربهم بالشكوى، ثمَّ يُجرِّدوا ألسنتهم وأقلامهم لتبصير الناس وتوجيههم الوجهة الصحيحة.

هذا عالم فذٌّ من علماء الأندلس يجأرُ بالشكوى إلى اللَّه، يشكو ملوكَ زمانه؛ لانشغالهم بالدنيا عن الآخرة، وبعمارة القصور عن عمارة الشريعة، وبجمع المال عن حماية الديار.

وفي مثل هذا الجو يضعُف الأخيار ويكثر الأشرار، ويستشرف أعداء الإسلام السِّيادة والسلطان، وهذا ما حدث، عندما اتخذ بعضُ الملوك اليهودَ وزراءً وعمَّالاً سلَّطُوهم على رقاب المسلمين فاستأسدوا، وضَارّوا المسلمين، وتجرَّأ زعيمُهم على كتابة كتابٍ يتهجم فيه على كتاب اللَّه الكريم، ويزعم أنه متناقض. فكتب ابن حزم كتابه هذا[1]، وبدأه بالشكوى: «اللَّهم إنَّا نشكو إليكَ تشاغُل أهل الممالك ـ من أهل ملتنا ـ بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصورٍ ـ يتركونها عمَّا قريبٍ ـ عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وبجمع أموالٍ ـ ربما كانت سببًا إلى انقراض أعمارهم، وعونًا لأعدائهم عليهم ـ عن حِياطة ملَّتهم التي بها عزُّوا في عاجِلَتهم، وبها يرجون الفوز في آجلتهم، حتى استشرف لذلك أهلُ القبلة والذِّمة، وانطلقت ألسنةُ أهل الكفر والشرك بما لو حقَّق النظر أربابُ الدنيا لاهتموا بذلك ضِعفَ هَمِّنَا؛ لأنهم مُشاركون لنا فيما يلزم الجميع، من الامتعَاضِ للديانة الزهراء، والحميَّة للملة الغرَّاء، ثمَّ هُم بعدُ مُتردُّون بما يؤول إليه إهمالُ هذه الحال، من

(١) كتاب «الردُّ على ابن النغريلة اليهودي» ص(٤٥ ـ ٤٦) تحقيق د. إحسان عباس ـ نشر مكتبة دار العروبة ـ القاهرة.

فساد سياستهم والقدح في رياستهم. فللأسباب أسباب، وللمداخل إلى البلاء أبواب، واللَّه أعلم بالصواب، وقد قال علي بن العباس:

لا تَحْقِرَنَّ سُبَيْبًا كم جرَّ أمرًا سُبَيْبُ

وقال أبو نصر ابن نباتة:

فَلاَ تَحْقِرَنَّ عدوًّا رماكَ وإنْ كَانَ في سَاعِدَيْهِ قِصَرْ
فإنَّ السيوفَ تحزُّ الرقابَ وتعجَزُ عمَّا تَنالُ الإبَرْ

لقد كان في المسلمين بقية خيرٍ؛ فقد أثَّرت كتابات الأخيار فيهم، وأثارت حميَّتهم قصائد الشعراء الذين بيَّنوا مساوئ اليهود، ومنها قصيدة أبي إسحاق الألبيري التي يقول فيها:

وإنِّي احتللتُ بِغِرْنَاطَةَ فكنتُ أراهم بِهَا عابثِينْ
وَقَدْ قسَّموها وأعمالَهَا فمنهُمْ بكلِّ مكانٍ لَعينْ
وَهُمْ يَقْبِضُونَ جِبَاياتِهَا وأنْتُمْ لأوضَاعِهَا لابِسُونْ
وهم أُمَناكم على سِرِّكمْ وكيفَ يكون أمينًا خَئُونْ

وثار المسلمون وهبُّوا جميعًا في ثورةٍ عارمةٍ أودت بحياة أربعمائة مجرمٍ يهودي، منهم ابن النغريلة، هذا الذي بلغ مرتبة الوزارة.

ما أشبه الليلةَ بالبارحة! ومُصابُ اليومِ أعظمُ، فأهل الممالك في زماننا أقاموا لليهود دولة في مَسرَى الرسول ﷺ، وباعوا الأرض المباركة بعرضٍ حقيرٍ، واعترف بعض هؤلاء بدولة أبناءِ الخنازير، واستقبلوهم في ديارهم. تُرى، لو كان ابن حزم حيًّا ماذا يقول، وماذا يكتب؟ وتراه لو كَتَب، أيحرِّك أشجان المسلمين؟! إلى اللَّه نشكو، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العظيم»[1].

(١) جولة في رياض العلماء» للدكتور عمر سليمان الأشقر ص(١٠٣ ـ ١٠٥)ـ طبع دار النفائس ومكتبة الفلاح.

لا يعلم إلا اللَّه ـ إن لم يأمرِ الربانيُّون بالمعروف وينهون عن المنكر ـ ما سيكون، والوحل والحضيض الذي تعيش فيه الأمة يُدمي القلوب والعيون، والمسلمون ينحدرون من هاوِيَةٍ إلى هاوية، ويتقهقرون من نكسة إلى نكسة، ويتهافتون من خَرابٍ إلى خرابٍ.

ألفَت الأمة الآثام، حتى أمست جزءًا من كِيَانها تتمسَّك به وتدافع عنه، حالُهم مثلُ حال الأُمم التي قال اللَّه عز وجل فيها: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ...﴾ الآية [النحل: ٦٣] جعل القبيح في عيونهم حَسَنًا، والمُرّ في مذاقهم حلوًا، وكرّه لهم الاستقامة وَوَحي السماء، فهم لا يرتضُون إلا ما ابتدعوا، ولا يقبلون عنه بديلاً.

ومثال ذلك الواضح: كان القذرُ الجنسّي يتمُّ في خَفَاء، ثم صار يبدو على استحيَاء، ثم تواضعَ عليه الرِّعَاعُ، ثم صار قانونًا يُعمل به، ثم انعقدت مؤتمراتٌ عالمية تدعو إليه ولا ترى فيه عِوَجًا فَمَن يُعرِّي هؤلاءِ العُراة ويفضحهم إن سكتَ الربانيُّون؟!

ناشئةٌ حديثةٌ تكره اللَّه ورسوله، وتنقم على الإسلام ووحيه، وتريد باسم العلمانية أن تعيدنا إلى جاهلية عمياء..

ومن لهؤلاء الأقزام يصدُّهم إلا الجبال الشُّمُّ من الربانيين الذي ذاقوا حلاوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاستعذبوا ما يُلاقون، ابتغاءَ وَجه ربهم الأعلى؟! يا جيل المصاحف. أكلت مواسِمَنا الجنادب.. واستبدَّ بنا الحواة، وغادرتنا آخرُ السُّحُبِ الحميمةِ في السماء.

وأقول يا جيل المصاحف.. يا خميرَ الأرض.. يا غَرسَ الشهادة، أنت الذي سيبدِّل الأوزان والأحزان، يزرعُ في العيون نخيلَها، فَلَكَم تباطأَ في الرحيل عن القُرى عامُ الرَّماد!!